عيّنة من الرواية

(للتصفح والاطّلاع)

بسم الله الرحمن الرحيم

شيرلوك هولمز

كلب باسْكِرْفيل

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية شيرلوك هولمز
المنشورة أول مرة عام ١٩٠١ بعنوان

The Hound of the Baskervilles

نُشرت في مجلة «ستراند»
من عدد آب (أغسطس) ١٩٠١
إلى عدد نيسان (أبريل) ٢٠٢

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا
الكتاب بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو
إلكترونية أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثانية
٢٠٢٠

الفصل الأول

الزائر الغريب

كان شيرلوك هولمز جالساً إلى مائدة الإفطار، وكان من عادته أن يتأخر في الاستيقاظ صباحاً إلا في الحالات التي يقضي فيها الليل مستيقظاً، أما أنا فوقفت على السجادة أمام المدفأة حاملاً العصا التي تركها زائرنا وراءه في الليلة السابقة. كانت من الخشب المصقول ولها رأس كرأس البصلة، وقد نُقشت عليها هذه الكلمات: "إلى جيمس مورتيمير، زميل كلية الجراحين الملكية. من أصدقائه في م ت ك، ١٨٨٤". كانت عصا فخمة صلبة كتلك العصيّ التي اعتاد أي صاحب مهنة في عائلة من الطراز القديم على حملها.

سألني هولمز: ما الذي تستنتجه منها يا واطسون؟

كان يجلس وقد أولاني ظهره كما أنني لم أعطِه أي إشارة إلى ما أصنعه، فسألته: كيف عرفت ما في يدي؟ هل لك عينان في مؤخرة رأسك؟

قال: بل أمامي دلّة قهوة فضية مصقولة جيداً. حسناً، أخبرني يا واطسون: ما الذي تستنتجه من عصا زائرنا؟ فبما أن

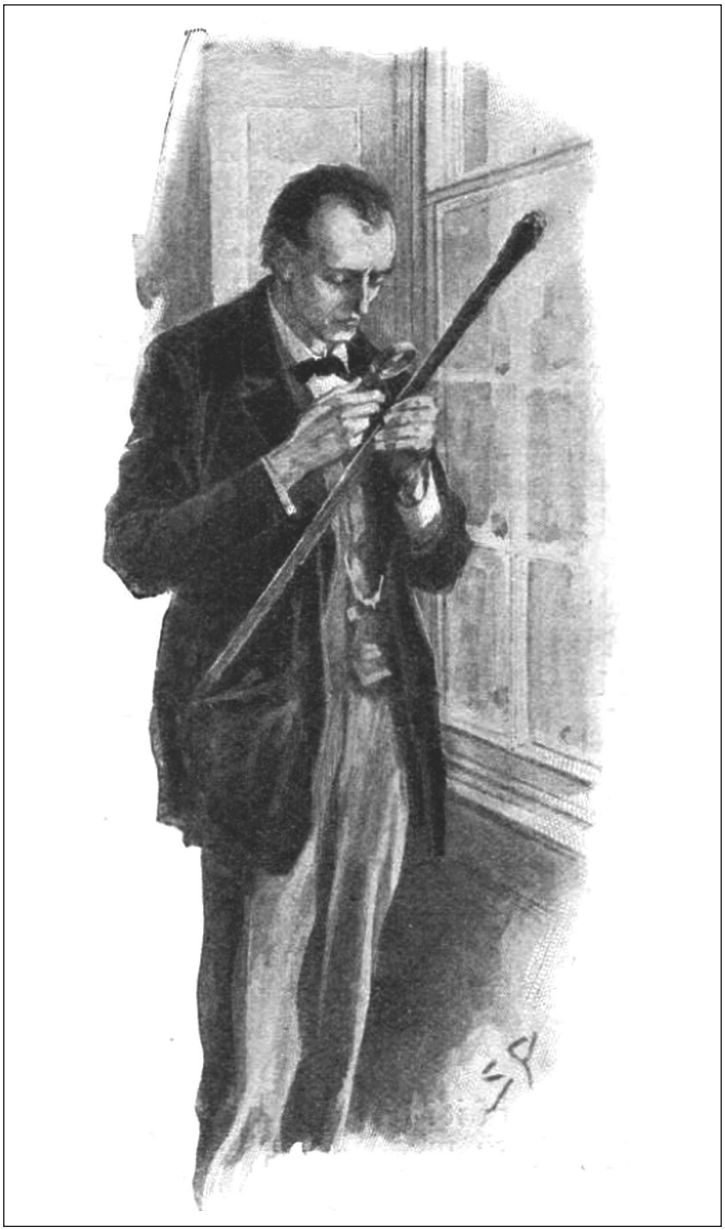

رسم سدني باجيت (١٩٠١)　　Sidney Paget (1901)

الحظ لم يحالفنا فلم نقابله ولا عرفنا سبب زيارته فقد أصبح لهذه القطعة التّذكارية التي تركها عن غير قصد بعض الأهمية. أحب أن أسمع وصفك للرجل بناء على فحصك لعصاه.

قلت وأنا أحاول اتباع أسلوب رفيقي في التحليل قدر المستطاع: أظن أن الدكتور مورتيمير طبيب ناجح، متقدم في السن، له مكانة محترمة لأن أصدقاءه قدموا له هذه الهدية دلالة على تقديرهم له.

قال هولمز: ممتاز، رائع.

- وأظن أيضاً أنه يمارس عمله في الريف ويذهب في معظم زياراته للمرضى على الأقدام.

- لماذا؟

- لأن هذه العصا التي كانت أنيقة جداً في أصلها صارت مستهلَكة جداً بحيث لا أستطيع تصور طبيب مدينة يحملها، وقد اهترأ الغطاء المعدني السميك في أسفلها، وهذا يدل على أنه يستخدمها كثيراً في المشي.

قال هولمز: صحيح تماماً.

- أما الكلمات التي وردت في الإهداء "أصدقاؤك من «م ت ك»" فأظن أنها تشير إلى جماعة للصيد، أعضاء جماعة صيد محلية لعله قدَّم لهم مساعدة طبية فكافؤوه بهذه الهدية في المقابل.

قال هولمز وهو يشعل غليونه ويدفع كرسيه إلى الخلف:

إنك تتفوق على نفسك حقاً يا واطسون، حتى إنني أجد نفسي ملزماً بالقول إنك قللت من قدر نفسك في كل الروايات التي تفضلت فيها بتسجيل إنجازاتي المتواضعة. قد لا تتمتع أنت نفسك بالبريق، ولكنك بالتأكيد موصل جيد للضوء. فلدى بعض الناس قدرة رائعة على تحفيز الآخرين على التفكير العبقري دون أن يتمتعوا هم أنفسهم بتلك العبقرية، وعلى هذا فأنا أعترف بأنني مدين لك بالكثير يا صديقي العزيز.

لم يقُل لي هولمز مثل هذا الكلام من قبل فمنحتني كلماته سعادة بالغة، فقد كنت أستاء في كثير من الأحيان بسبب اللامبالاة التي كان يبديها تجاه إعجابي به ومحاولاتي لنشر قصص القضايا التي توضح منهجه وأساليب عمله، كما أنني شعرت بالفخر أيضاً لأنني برعت في تطبيق هذا المنهج بطريقة نالت رضاه.

أخذ هولمز العصا من يدي وفحصها لبضع دقائق بعينيه المجردتين، ثم وضع غليونه جانباً وقد بدا على وجهه تعبير يدل على الاهتمام، فحمل العصا إلى النافذة وفحصها ثانية بعدسته المكبرة، ثم قال وهو يعود ليجلس في ركنه المفضل من الأريكة: مثير للاهتمام وإن كان بسيطاً. في هذه العصا بعض الأدلة التي نستطيع أن نبني عليها عدة استنتاجات.

قلت ببعض الغرور: هل فاتني شيء؟ أعتقد أنني لم أغفل أي شيء ذا أهمية.

- أخشى يا عزيزي واطسون أن بعض استنتاجاتك غير

صحيحة، فحين قلتُ إنك تحفز عقلي قصدت -بصراحة- أن ملاحظة أخطائك تقودني في بعض الأحيان إلى الحقيقة! ولا يعني هذا أنك أخطأت بشكل كامل، فالرجل يمارس الطب في الريف وهو يمشي كثيراً بلا شك.

- كنت على صواب إذن؟

- إلى هذا الحد، نعم.

- ولكن كان هذا كل شيء.

- لا، لا يا عزيزي واطسون، ليس كل شيء، ليس كل شيء على الإطلاق. فأنا أعتقد مثلاً أن تقديم إهداء لأي طبيب يكون على الأرجح من مستشفى وليس من جماعة صيد، وحين يأتي هذا الاختصار «ت ك» أمام ذلك المستشفى فإن اسم مقاطعة تشيرنغ كروس يفرض نفسه.

- قد تكون على حق.

- هذا الرأي هو الراجح، وإذا أخذناه على أنه نظرية ممكنة سنحصل على نقطة جديدة تساعدنا على وصف شخصية زائرنا المجهول.

- حسناً إذن، ما هي الاستنتاجات الإضافية التي يمكن أن تستخلصها لو افترضنا أن «م ت ك» تشير بالفعل إلى مستشفى تشيرنغ كروس؟

- ألا يخطر على بالك شيء؟ أنت تعرف منهجي في البحث فحاول تطبيقه.

- لا يخطر ببالي إلا الاستنتاج الواضح بأنه عمل في المدينة قبل أن ينتقل للعمل في الريف.

- بوسعنا أن نتجرأ على استنتاج ما هو أكثر من هذا بقليل. فكر في الأمر على النحو التالي: في أي مناسبة يرجَّح أن تقدَّم هدية من هذا النوع؟ متى يمكن أن يجتمع أصدقاؤه ليقدموا له هذا البرهان على تقديرهم له؟ غالباً كان هذا في الوقت الذي انسحب فيه الدكتور مورتيمير من العمل في المستشفى ليبدأ العمل في عيادته الخاصة. نعلم أنهم قدموا له هدية وأنه انتقل من العمل في مستشفى بالمدينة إلى العمل بعيادة خاصة في الريف، فهل ستكون مجازفة لو استنتجنا أن الهدية قُدّمت له وقت انتقاله؟

- بل يبدو الأمر محتمَلاً بالتأكيد.

- والآن يجب أن تلاحظ أنه لن يكون واحداً من أطباء المستشفى الدائمين، فهذه الوظيفة لا يحظى بها من الأطباء إلا من عمل مدة طويلة بعيادة في لندن، ومثل هذا النوع من الأطباء لن يرضى بالعمل في الريف، فماذا كان إذن؟ لو أنه عمل في المستشفى ولم يكن ضمن طاقم الأطباء المعتمدين فلا يمكن إلا أن يكون جراحاً مقيماً أو طبيباً في فترة التدريب، أي أنه لا يزيد عن طلبة السنة النهائية إلا قليلاً. وقد رحل عن المستشفى منذ خمسة أعوام (وهو التاريخ المكتوب على العصا). وهكذا فإن طبيب العائلة الكهل الوقور الذي تحدثت عنه -يا عزيزي واطسون- قد تبخر في الهواء ليحل محله شاب

لم يتجاوز الثلاثين من عمره، لطيف وغير طموح، وهو شارد الذهن، ويملك كلباً مدللاً أستطيع أن أصفه بشكل تقريبي فأقول إنه أكبر من كلاب التيرير وأصغر من كلاب الدرواس.

ضحكت متشككاً فيما اضطجع شيرلوك هولمز في كرسيه الوثير وأخذ ينفث من غليونه حلقات الدخان الصغيرة المرتعشة لتتصاعد حتى السقف، ثم قلت: بالنسبة للجزء الأخير لا أملك وسيلة أتمكن بها من اختبار صدق كلامك، ولكن ليس من الصعب على الأقل اكتشاف عمر الرجل وسجل عمله.

سحبت من الرف الذي وضعت عليه كتبي الطبية الدليلَ الذي يحتوي على أسماء الأطباء وعناوينهم وأخذت أبحث عن الاسم. وجدت عدداً من الأطباء بلقب مورتيمير، ولم أجد بينهم من تنطبق عليه صفات زائرنا إلا واحداً فقط، فقرأت بصوت عال: "مورتيمير، جيمس، عضو كلية الجراحين الملكية، ١٨٨٢، غريمبن، دارتمور، ديفون. عمل طبيباً مقيماً في مستشفى تشيرنغ كروس من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٨٨٤، حاصل على جائزة جاكسون في علم الأمراض المقارَن وعضو بالمراسلة في جمعية علم الأمراض السويدية. له أبحاث طبية منشورة منها: «هل المرض وراثي؟» و«بعض غرائب عودة الأمراض الوراثية المتنحّية»، وهو المسؤول الطبي في دائرة غريمبن وثورْسلي وهاي بارو".

قال هولمز بضحكة ماكرة: لا ذكر لجماعة صيد محلية يا واطسون! ولكنه طبيب ريفي كما لاحظتَ بذكاء شديد. أعتقد

أن استنتاجاتي قد تأكدت صحتها، أما الصفات الشخصية فقد ذكرت أنه ودود غير طموح شارد الذهن، فمن خبرتي أعرف أن الشخص الودود هو وحده من يحصل في هذا العالم على التكريم، والشخص غير الطموح هو وحده من يترك حياة مهنية في لندن ويذهب إلى الريف، والشارد وحده هو من يقضي ساعة بانتظارك في منزلك ثم يترك عصاه بدلاً من بطاقة تعريفية!

- وماذا عن الكلب؟

- لقد اعتاد أن يحمل هذه العصا خلف سيده، ولأنها ثقيلة فقد كان الكلب يحملها بقوة في وسطها حيث تلاحَظ علامات أسنانه بوضوح، وكما يبدو من المسافة بين هذه العلامات فإن فك الكلب عريض بحيث لا يمكن أن يكون كلب تيرير وليس عريضاً بما فيه الكفاية ليكون من كلاب الدرواس، ولهذا فقد يكون... نعم، يا إلهي، إنه كلب إسبانيولي له شعر مجعّد!

كان قد عبر الغرفة في أثناء كلامه ووقف أمام النافذة. ولاحظت في كلامه نبرة ثقة جعلتني أنظر إليه بدهشة، فسألته قائلاً: كيف استطعت أن تكون متأكداً بهذه الدرجة من هذا الأمر يا صديقي العزيز؟

- لأنني ببساطة أرى الكلب نفسه عند باب منزلنا، وها هو مالكُه يقرع الجرس. أرجو أن لا تغادر يا واطسون، إنه زميل لك في المهنة وسيكون وجودك مفيداً. والآن اقتربت

اللحظة المصيرية المثيرة يا واطسون، حين تسمع خطوات على الدرج لأشخاص على وشك الدخول إلى حياتك وأنت لا تعرف إن كان دخولهم سيحولها إلى الأحسن أو إلى الأسوأ. ماذا يريد الدكتور جيمس مورتيمير المتخصص بعلاج الناس من شيرلوك هولمز المتخصص في علم الجريمة؟

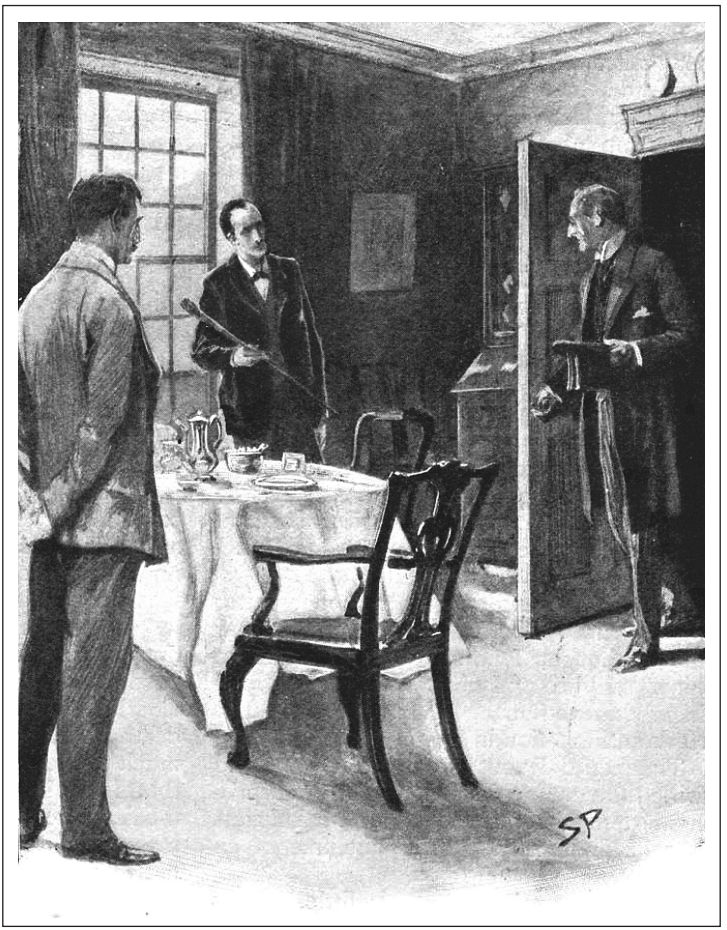

رسم سدني باجيت (١٩٠١) Sidney Paget (1901)

كان مظهر زائرنا مفاجأة لي، فقد توقعت أن يكون نموذجاً لطبيب ممارس يعمل بالريف، ولكنه كان فارع الطول نحيل الجسم له أنف طويل كالمنقار يبرز من بين عينين حادتين رماديتين تلمعان بذكاء خلف نظارة ذات إطار ذهبي، وكانت ملابسه تتوافق مع مهنته ولكنها رثة المظهر، فقد كان معطفه بالياً وبنطاله متهرئاً، ورغم أنه لا يزال شاباً إلا أن ظهره كان مَحنياً، وقد مشى ورأسه مندفع إلى الأمام ومظهره يوحي بحب الخير.

حين دخل وقعت عيناه على العصا التي كانت في يد هولمز فصاح فرحاً وقال: أنا سعيد جداً، فلم أكن واثقاً إن كنت تركتها هنا أو في مكتب الشحن. إنها عصا عزيزة جداً عليّ.

قال هولمز: أرى أنها هدية؟

- أجل يا سيدي.

- من مستشفى تشيرنغ كروس؟

- من بعض الأصدقاء هناك بمناسبة زواجي.

قال هولمز وهو يهز رأسه: يا إلهي، هذا سيّئ.

طرف الدكتور مورتيمير من وراء نظارته بدهشة خفيفة وسأل قائلاً: لماذا هو سيّئ؟

- فقط لأنك أفسدت عملية الاستنتاج التي كنا نتنافس بها! تقول إنك متزوج، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، لقد تزوجت فتركت المستشفى، وبهذا

ضاع كل أمل لي في فتح عيادة استشارية، ولكن كان ذلك ضرورياً في سبيل تأسيس حياتي العائلية الخاصة.

قال هولمز: لم نبتعد عن الاستنتاج الصحيح إذن. حسناً يا دكتور جيمس مورتيمير، من الواضح أنك تتمتع بعقل شديد الدقة.

- مجرد هاوٍ للعلم يا سيد هولمز، مجرد جامع للقواقع على شواطئ ذلك المحيط الهائل المجهول. أفترضُ أنني أتحدث إلى السيد شيرلوك هولمز وليس إلى...

- نعم، وهذا هو صديقي الدكتور واطسون.

- سعدت بلقائك يا سيدي، فقد سمعت اسمك يُذكر مرتبطاً باسم صديقك. إنك تثير اهتمامي بشكل كبير يا سيد هولمز، فلم أتوقع أن تكون عظام رأسك مستطيلة بهذا الشكل ولا أن يكون لك مثل هذا الشكل المميز فوق محجر العين. هل تمانع في أن أتحسس الشق الجداري في جمجمتك؟ إن قالباً يمثل شكل جمجمتك (إلى أن يحين الوقت الذي تستطيع فيه عرض الجمجمة الأصلية) سيكون تحفة في أي متحف متخصص بعلم الإنسان. أعتذر على عدم لباقتي، ولكنني أعترف بأنني أغبطك على جمجمتك.

أشار شيرلوك هولمز لزائرنا الغريب كي يجلس وقال: إن حماستك لمجال عملك تضاهي شغفي بعملي كما ألاحظ يا سيدي. ألاحظ من إصبع سبابتك أنك تصنع لفائفك بنفسك، فلا تتردد في إشعال واحدة لو أحببت.

أخرج الرجل ورق اللفائف والتبغ ولَفّ اللفافة بمهارة مثيرة للدهشة. كانت له أصابع طويلة دائمة الحركة كقرون استشعار الحشرات في خفة الحركة. وكان هولمز صامتاً، ولكني عرفت من نظراته الثاقبة مدى اهتمامه بزائرنا المثير للفضول، وأخيراً قال: أظن أنك لم تشرفني بالحضور ليلة أمس والعودة ثانية اليوم لمجرد فحص جمجمتي يا سيدي؟

- نعم يا سيدي، على الرغم من سعادتي لأنني نجحت بذلك أيضاً. لقد جئت إليك يا سيد هولمز لأنني أدركت أنني لست رجلاً عملياً ولأنني واجهت فجأة مشكلة غريبة وخطيرة جداً، ولإدراكي أنك ثاني أعلى خبير في أوروبا...

سأل هولمز ببعض الخشونة قائلاً: حقاً؟ وهل لي أن أسأل: مَن يتشرف بأن يكون الأول؟

- حين نريد رجلاً يتمتع بعقل علمي بَحْت فإن أعمال المسيو بيرتيللو تفرض نفسها بقوة.

- ألا يكون من الأفضل أن تستشيره إذن؟

- قلت "العقل العلمي البحت" يا سيدي، أما المسائل التطبيقية فمن المعروف أنه لا مجال لمنافستك فيها. أرجو أن لا أكون عن غير قصد قد تسببت في...

أجابه هولمز قائلاً: قليلاً فقط. حسناً، أرى أن تخبرني بوضوح وبلا تأخير بطبيعة المشكلة التي تلتمس مساعدتي فيها.

* * *

الفصل الثاني

لعنة آل باسكرفيل

قال الدكتور مورتيمير: إنني أحمل مخطوطة في جيبي.

قال هولمز: لاحظت ذلك عندما دخلتَ إلى الغرفة.

- إنها مخطوطة قديمة.

- من أوائل القرن الثامن عشر، ما لم تكن مزيفة.

- كيف عرفت ذلك يا سيدي؟!

- لقد عرضتَ بوصتين مربعتين منها أمامي طوال فترة حديثك، وأي خبير لا يستطيع تحديد تاريخ أي وثيقة في نطاق يتراوح بين عقد وعقدين يفتقر إلى البراعة. يمكنك قراءة بحث صغير كتبته في هذا الموضوع، وأنا أقول إن تاريخ هذه المخطوطة يعود لسنة ١٧٣٠ تقريباً.

أخرج الدكتور مورتيمير المخطوطة من جيبه العلوي قائلاً: تاريخها الدقيق هو سنة ١٧٤٢، وهي وثيقة عائلية وضعها تحت مسؤوليتي السير تشارلز باسكرفيل الذي تسبب موته المفاجئ والمأساوي منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر في

إثارة حالة من الهياج الهائل في مقاطعة ديفونشاير. كنت طبيبه وصديقاً شخصياً له، وكان رجلاً راسخ الرأي وعملياً ويفتقر إلى الخيال مثلي، ومع ذلك فقد حمل هذه الوثيقة على محمل الجد وكان عقله مستعداً لمثل تلك النهاية التي حلّت به.

تناول هولمز المخطوطة وفردها على ركبتيه، ونظرت من فوق كتفه إلى الورقة الصفراء والنص الباهت. كان العنوان «باسكرفيل هول» وقد كُتب تحته بخط سيّئ كبير «١٧٤٢».

- يبدو وكأنه بيان من نوع ما؟

- نعم، إنه بيان بأسطورة معينة تحيط بأفراد عائلة باسكرفيل.

- ولكنني أتوقع أن الأمر الذي تريد استشارتي فيه أكثر حداثة وواقعية؟

- إنه حديث جداً وواقعي تماماً، وهو أمر مُلِحّ وعاجل يجب اتخاذ القرار فيه في نحو أربع وعشرين ساعة. المخطوطة قصيرة وتَمُتّ بصلة وثيقة بالموضوع، لذلك سأقرؤها لك إن سمحت.

اضطجع هولمز في مقعده وضغط أطراف أصابع يديه معاً وأغلق عينيه بشكل يوحي باستسلامه للقدر، فوجّه الدكتور مورتيمير المخطوطة ناحية الضوء وبدأ يقرأ بصوت عال واضح حكايةً مثيرةً من الزمن القديم:

تعددت الحكايات عن أصل كلب آل باسكرفيل، وحيث إنني أنحدر من سلالة هوغو باسكرفيل فقد سمعت القصة من أبي الذي سمعها من أبيه، لذلك فإنني أدوّنها وأنا مؤمن تماماً بأنها وقعت كما هو موضح هنا، وأريدكم أن تؤمنوا -يا ولديّ- بأن

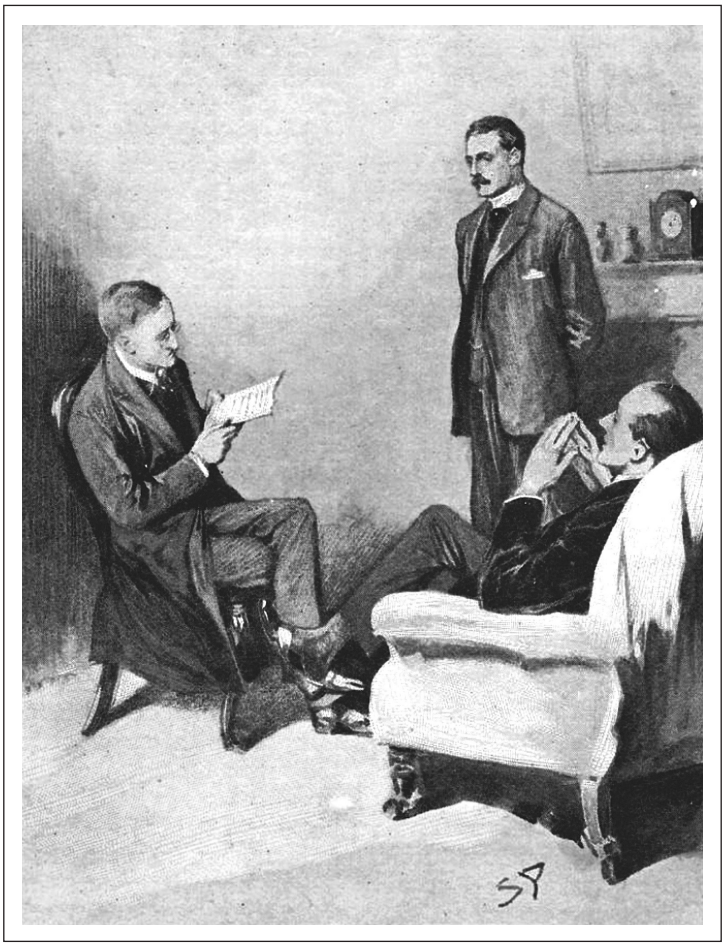

رسم سدني باجيت (١٩٠١) Sidney Paget (1901)

العدالة التي تعاقب على الخطيئة يمكنها أيضاً أن تغفرها بمنتهى الكرم، وأن من الممكن التخلص من أي لعنة مهما عظمت بالتوبة والدعاء. تعلّموا من هذه القصة أن لا تخافوا حصاد الماضي، ولكن احرصوا على التزام الحذر حتى لا تتفجر مرة أخرى مثلُ تلك الانفعالات الشريرة التي عانت منها عائلتنا بشكل مؤسف لوقت طويل.

فلتعرفوا إذن أنه في وقت الثورة العظمى (وأوصيكم بقراءة تاريخ تلك الفترة التي كتب عنها اللورد كليريندُن) كانت عزبة باسكرفيل ملكاً لأحد أفراد العائلة واسمه هوغو، ولا يمكن إنكار أنه كان همَجياً دنيئاً لا هَمّ له غير المتعة بالأمور الدنيوية. وكان من الممكن لجيرانه أن يصفحوا عن ذلك كله لولا أنه كان يتميز بقَدْر كبير من القسوة والوحشية، وقد تصادف أن وقع في الحب، هذا إنْ جازَ أن نطلق على تلك العاطفة الشريرة مثلَ هذا الوصف اللطيف. أحب ابنةَ مزارع له أرض بالقرب من عزبة باسكرفيل، ولكن الفتاة تمتعت بالحكمة وحُسن السمعة فتجنبته خوفاً من سمعته الشريرة.

ثم وقعت حادثة بشعة. في أحد الأيام تسلل هوغو ومعه خمسة من رفاقه الأشرار خلسة إلى المزرعة واختطفوا الفتاة في وقت كان أبوها وإخوتها غائبين فيه عن المنزل. وحين نقلوا الفتاة إلى القصر وضعوها في إحدى الغرف العلوية وراحوا يفرطون في الشراب

كما هي عادتهم كل ليلة. ولا بد أن الفتاة المسكينة المحبوسة في الطابق العلوي قد تملكها الخوف حين سمعت الغناء والصراخ واللعنات الرهيبة التي كانت تصدر من الطابق السفلي، وأخيراً دفعها الهلع إلى صنع ما لا يجرؤ أكثر الرجال شجاعة وقوة على صنعه: نزلت على شجرة اللبلاب التي كانت تغطي (ولا تزال) الجدار الجنوبي، وأسرعت باتجاه منزلها عبر المستنقع، وكانت المسافة بين مزرعة أبيها والقصر عدة أميال.

وتصادف أن هوغو ترك ضيوفه بعد هروبها بوقت قصير ليحمل إليها الطعام والشراب، فاكتشف أن القفص خالٍ وأن العصفور هرب منه. عندها تملّكه الشيطان فأسرع إلى غرفة الطعام في الأسفل وقفز على الطاولة الكبيرة وهو يركل الأطباق والأباريق لتتطاير أمامه، وصاح عالياً أنه في تلك الليلة بالذات سيقدم روحه لقوى الشر لو استطاع اللحاق بالفتاة.

وفيما وقف أصدقاؤه المعربدين دَهِشين أمام غضبه صاح شخص أكثر شراً (أو ربما أكثر سكراً من الآخرين) قائلاً إن عليهم أن يطلقوا كلاب الصيد لتتعقب آثار الفتاة. فجرى هوغو خارجاً من المنزل وهو يصيح آمراً سائسي الخيل بأن يسرجوا فرسه ويُخرجوا مجموعة كلاب الصيد، ثم قدّم للكلاب منديل الفتاة ووجّههم نحو الطريق لينطلقوا بأقصى سرعة إلى المستنقع في ضوء القمر.

وقف المعربدون فاغرين أفواههم غيرَ قادرين على فهم ما حدث بمثل تلك السرعة، ثم تنبهت عقولهم المشوَّشة لطبيعة الحادثة الذي كان متوقَّعاً وقوعها على أرض المستنقع، فعمّ الضجيج. البعض يطلب إحضار المسدسات والبعض يطلب الأحصنة وبعضهم طلب المزيد من الشراب، وعندما عاد بعض الرشد أخيراً إلى عقولهم المغيَّبة ركبوا جميعاً جيادهم، وكانوا ثلاثة عشر، وبدؤوا المطاردة.

كان القمر يشع فوقهم فانطلقوا جنباً إلى جنب بسرعة وهم يسلكون الطريق الذي لا بد للفتاة أن تقطعه لو أرادت الوصول إلى منزلها. قطعوا ميلين حين مروا بأحد رعاة الغنم الليليين عند المستنقع، فصاحوا فيه يسألونه إن كان قد رأى طريدتهم، ولكن الرجل -حسب القصة- كان فاقداً رشده من الهلع الشديد لدرجة كادت تمنعه من النطق، وأخيراً أخبرهم أنه رأى الفتاة بالفعل والكلاب تجري في إثرها، ثم قال: ولكني رأيت ما هو أكثر من ذلك، فقد مرّ بي هوغو باسكرفيل راكباً على فرسه السوداء، وكان يجري وراءه بصمت كلبٌ من جهنّم، أدعو الله أن يقيني شره!

تركوا الراعي واستمروا في طريقهم، ولكن سريعاً ما اقشعرت أبدانهم حين رأوا فرساً تجري عبر المستنقع. وسرعان ما وصلت الفرس السوداء وقد خرج من فمها الزّبَد الأبيض ولجامها يجرجر على الأرض وسرجها خال من راكبها. فتقارب المعربدون بعضهم من بعض

وقد اعتراهم خوف شديد، ثم تابعوا سيرهم في المستنقع وكل واحد منهم يتمنى لو عاد أدراجه. أخذوا يسيرون ببطء حتى وجدوا الكلاب أخيراً، ورغم ما هو معروف عنها من شجاعة وأصالة كانت الكلاب قد تجمعت على رأس حفرة عميقة شديدة الانحدار في

رسم سدني باجيت (١٩٠١) Sidney Paget (1901)

المستنقع وهي تئنّ، وبعضها يتسلل مبتعداً والبعض الآخر يحدق إلى أسفل الوادي الضيق بعينين ذاهلتين وقد انتصب شعرها من الخوف.

توقفت المجموعة وقد بدأ تأثير الشراب في الانحسار، فرفض معظمهم التقدم رفضاً قاطعاً فيما تقدم إلى الأمام نحو الوادي ثلاثة منهم ربما كانوا الأكثر شجاعة بينهم أو الأكثر سكراً! في تلك اللحظة كان القمر يسطع بضوئه لينير المكان الفسيح، فرأوا فيه الفتاة التعسة حيث سقطت ميتة. ولكن لم يكن منظر جثتها ولا جثة هوغو باسكرفيل الممدة بالقرب منها هو ما جعل شعر رأس السكارى الثلاثة ينتصب فزعاً، بل لأنهم رأوا شيئاً مخيفاً يقف فوق جثته وينهش عنقه. لقد كان وحشاً هائلاً أسود على شكل كلب صيد، ولكنه أضخم من أي كلب صيد وقعت عليه عين إنسان.

وفيما هم ينظرون إلى ذلك المخلوق وهو يمزق عنق هوغو باسكرفيل بأنيابه رفع عينيه المستعرتين نحوهم وفكاه يقطران دماً، فصرخ الثلاثة من الخوف وانطلقوا على جيادهم يفرّون بحياتهم وصرخاتُهم تتردد عبر المستنقع، ويقال إن أحدهم مات في تلك الليلة من الرعب فيما عانى الاثنان الآخران طوال حياتهما.

هذه هي الحكاية يا أبنائي، حكاية الكلب الجهنمي الذي يقال إنه مصدر بلاء الأسرة منذ ذلك الوقت، وأنا أدوّنها لأن ما هو معروف بوضوح أقل إثارة للرعب من ذلك الذي لا نعرف عنه إلا التخمينات

والإشارات الخفيّة. مع العلم بأن كثيرين من أفراد العائلة قضَوا نحبهم بطريقة مأساوية مفاجئة دموية غامضة. وإني لأرجو أن نحمي أنفسنا إن لجأنا إلى كرم العدالة السماوية غير المحدود الذي لن يعاقب الأبرياء حتى الجيل الثالث أو الرابع إلى الأبد، فأنا

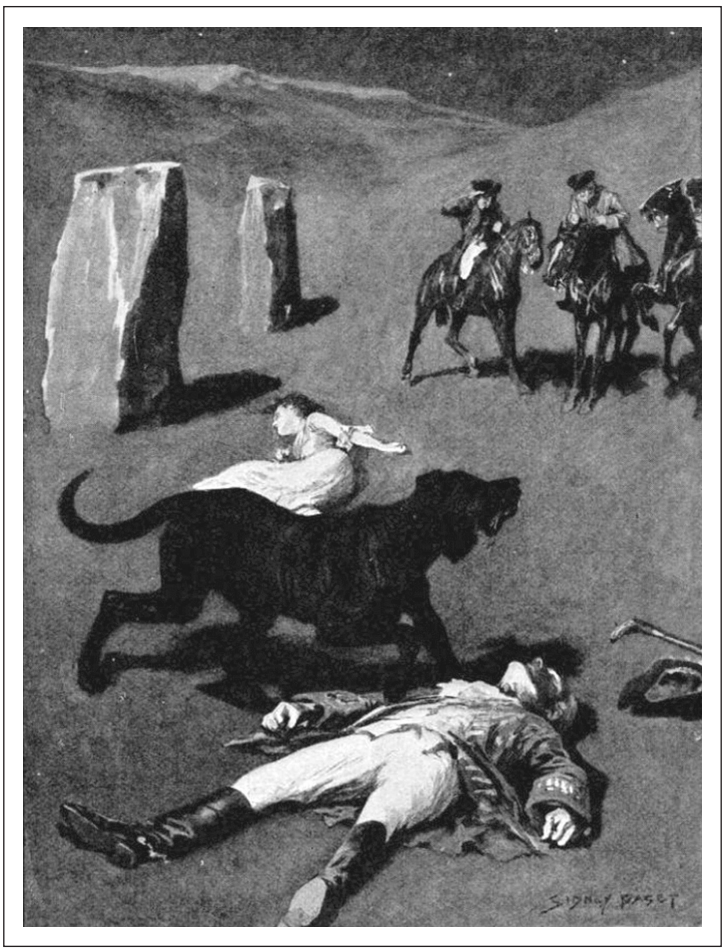

رسم سدني باجيت (١٩٠١) Sidney Paget (1901)

أستودعكم تلك العناية الإلهية، وأنصحكم أن تلزموا الحذر وتمتنعوا عن عبور المستنقع في ساعات الليل عندما تكون قوى الشر في أَوْجها.

كتب هذه الوثيقة ألفْرِد باسكرفيل إلى ولديه روجر وجون، مع التوصية بعدم إخبار أختهما إليزابيث بمحتوياتها.

عندما انتهى الدكتور مورتيمير من قراءة حكايته الغريبة دفع نظارته إلى الأعلى ونظر إلى شيرلوك هولمز محدقاً، فيما تثاءب الأخير وقال: وماذا في ذلك؟

- ألا تجد الأمر مثيراً للاهتمام؟

- إنه يثير اهتمام من يهوى جمع القصص الخرافية.

أخرج الدكتور مورتيمير صحيفة مطوية من جيبه وقال: والآن يا سيد هولمز سأقدم لك شيئاً أكثر حداثة. هذا عدد اليوم الرابع عشر من أيّار (مايو) من هذا العام من صحيفة «ديفون كاونتي كرونيكل»، وفيه وصف مختصر للحقائق المتعلقة بوفاة السير تشارلز باسكرفيل التي حدثت قبل ذلك التاريخ بعدة أيام.

مال صديقي إلى الأمام قليلاً وبدت عليه أمارات الاهتمام، وأعاد زائرنا نظارته إلى مكانها ليبدأ بالقراءة قائلاً:

ألقى الموت المفاجئ للسير تشارلز باسكرفيل بظلال قاتمة على المقاطعة، وكان اسمه قد تردد كمرشح

محتمَل عن حزب الأحرار في انتخابات مقاطعة ديفون، ورغم أن السير تشارلز لم يسكن قصر باسكرفيل إلا منذ مدة قصيرة نسبياً إلا أن شخصيته اللطيفة وكرمه البالغ جعلاه يحظى بمحبة واحترام كل الذين تعاملوا معه. ففي هذه الأيام التي انتشر فيها حُدَثاء النعمة من اللطيف أن نجد سليل عائلة عريقة عانت أياماً عصيبة وقد نجح في جمع ثروة خاصة به وعاد بها لاسترجاع أمجاد عائلته الضائعة.

فقد جمع السير تشارلز -كما هو معروف- مبالغ كبيرة من المال من المضاربة في جنوب أفريقيا، وكان أكثرَ حكمةً من أولئك الذين استمروا في المضاربة حتى انقلب الحظ ضدهم، حيث حقق مكاسبه وعاد بها إلى إنكلترا. وقد عُرف العامان اللذان قضاهما في قصر باسكرفيل بخطط الترميم والإصلاح الطموحة التي بدأ بها في القصر، والتي توقفت الآن بموته. وحيث إنه لم يكن له أولاد فقد عبّر دائماً بصراحة عن رغبته في أن يستفيد كل أبناء المقاطعة في حياته من خيرات ثروته، وهكذا فسوف يحزن على موته المفاجئ كثيرون.

لا يمكن القول إن التحقيق قد وضّح الملابسات المتعلِّقة بوفاة السير تشارلز كلياً، ولكن السلطات بذلت جهدها لدحض الشائعات التي تسببت في نشرها المعتقداتُ المحلية الخرافية، ولم يعثر على أي دليل يدعو إلى الشك بعمل إجرامي أو يدفع إلى تصور أن الوفاة وقعت بطريقة غير طبيعية.

كان السير تشارلز بلا زوجة ويمكن أن يقال إنه كان غريب الأطوار في بعض الأمور، فمع أنه كان ثرياً جداً إلا أنه كان يميل إلى البساطة، وقد اقتصر طاقم خدمه داخل قصر باسكرفيل على الزوجين باريمور، فكان الزوج كبيراً للخدم والزوجة مدبرة للمنزل، وشهادتهما التي عزّزَتها شهادات عدة أصدقاء تشير إلى أن صحة السير تشارلز كانت في حالة سيئة منذ فترة وإلى إصابته بمرض في القلب على وجه الخصوص، ويبدو هذا من تغيّر لون بشرته وضيق تنفسه بالإضافة إلى نوبات حادة من الاكتئاب.

وقائع القضية بسيطة، فقد كان السير تشارلز معتاداً قبل الذهاب إلى النوم كل ليلة أن يتمشّى في ممر شجر السرو الشهير في قصر باسكرفيل، وتشير شهادة باريمور إلى أن هذه عادته اليومية. في الرابع من أيّار (مايو) أعلن السير تشارلز عن رغبته في السفر صباح اليوم التالي إلى لندن وأمر باريمور بإعداد أمتعته للسفر، وفي تلك الليلة خرج كالمعتاد في نزهته الليلية التي كان معتاداً أن يدخن في أثنائها لفافة تبغ، إلا أنه لم يَعُد.

في الثانية عشرة ليلاً وجد باريمور أن باب القاعة ما يزال مفتوحاً، فشعر بالقلق وأشعل مصباحاً وخرج به ليبحث عن سيده، وكانت الأمطار قد سقطت في ذلك اليوم فكان من السهل تتبع آثار أقدام السير تشارلز على الممر. كانت في منتصفه بوابة تؤدي إلى أراضي

المستنقع، وقد عُثر على أدلة تشير إلى أن السير تشارلز وقف لبعض الوقت هناك، ثم تابع سيره في الممر حيث اكتُشفت جثته في آخره.

الحقيقة التي ليس لها تفسير هي شهادة باريمور التي تؤكد أن خطوات أقدام سيده تغيّر شكلها بعد أن مرّ

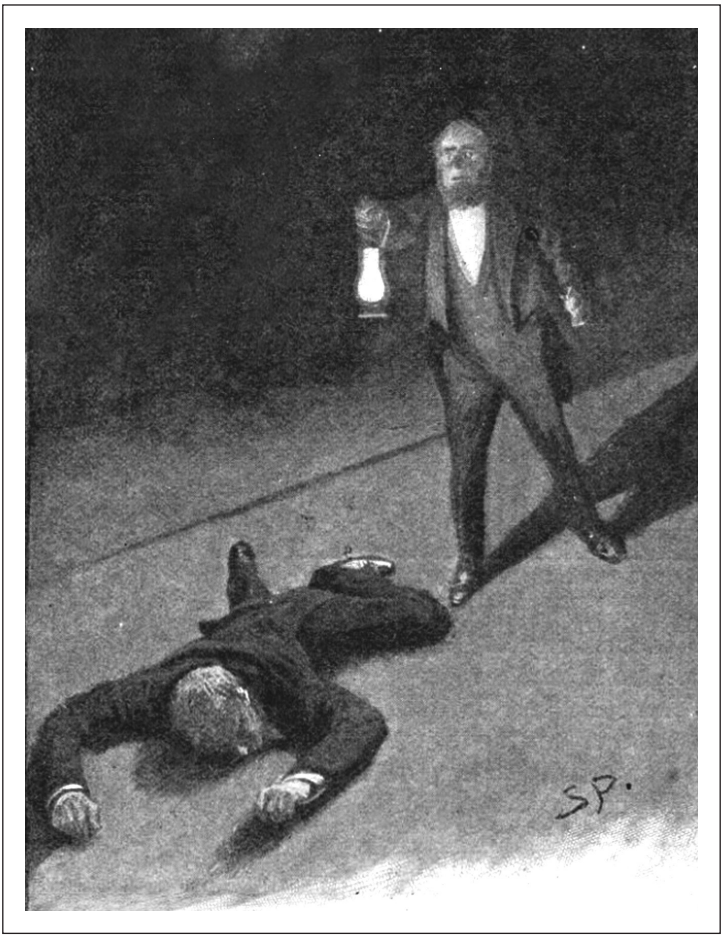

رسم سدني باجيت (١٩٠١) Sidney Paget (1901)

ببوابة المستنقع، حيث بدت خطواته بداية من ذلك المكان وكأنه كان يمشي على أصابع قدميه! ويدّعي مورفي، وهو تاجر خيل غجري كان في مكان غير بعيد عن المستنقع في ذلك الوقت، أنه سمع صرخات، لكنه لم يتمكن من تحديد الاتجاه الذي صدرت منه.

لم تكتشَف أي آثار للعنف على جسد السير تشارلز، إلا أن شهادة الطبيب تشير إلى تشوّه غريب جداً في ملامح الوجه، تشوّه شديد جداً لدرجة أن الدكتور مورتيمير رفض أن يصدّق في البداية أن صديقه ومريضه هو الشخص الممدد أمامه نفسه! على أن من المعروف أن هذه الأعراض ليست غير عادية في حالات ضيق التنفس والوفاة نتيجة إجهاد للقلب.

وقد جاء هذا التفسير بعد فحص الجثة الذي أظهر وجود مرض عضوي مزمن، وتطابق قرار هيئة التحقيق في أسباب الوفيات مع التقرير الطبي. ومن الجيد أن هذا هو الأمر لأننا نرغب في استقرار وريث السير تشارلز في القصر ليكمل العمل الجيد الذي توقف للأسف الشديد، فلولا أن تقرير هيئة التحقيق جاء عادياً ليوقف تلك القصص الخيالية التي ربطها الناس بالقضية وتناقلوها همساً لَصَعُبَ العثور على أحد يرضى بالسكن في قصر باسكرفيل. ومن المعروف أن أقرب أقرباء السير تشارلز (لو كان ما يزال حياً) هو ابن أخيه الأصغر، وآخر أخبار الشاب أنه كان في أمريكا، وقد علمنا أن السلطات تبحث عنه الآن لإبلاغه بحُسن حظه.

أعاد الدكتور مورتيمير طَيّ الجريدة ووضعها في جيبه ثم قال: هذه هي الحقائق العلنية يا سيد هولمز المتعلقة بوفاة السير تشارلز باسكرفيل.

قال شيرلوك هولمز: لا بد أن أشكرك لأنك لفَتَّ نظري إلى هذه القضية التي تحمل بالتأكيد بعض الحقائق المثيرة للاهتمام. كنت قد قرأت بعض تعليقات الصحف على الأمر في حينه، ولكنني كنت مشغولاً تماماً بقضية خارج إنكلترا ففقدت الصلة بعدد من القضايا الإنكليزية المهمة. تقول إن هذا المقال يحتوي على الحقائق العلنية؟

- نعم.

مال هولمز في كرسيه إلى الخلف وضمّ أطراف أصابع يديه معاً واكتسى وجهه بتعبير جامد محايد وقال: إذن أخبرني بالحقائق السرية.

قال الدكتور مورتيمير الذي بدأت تظهر عليه علامات الانفعال الشديد: سأخبرك بالمعلومات التي لم أستطع ائتمان أي مخلوق عليها، والسبب الذي دفعني إلى حجب هذه الوقائع عن هيئة التحقيق هو أن رجل العلم ينفر من وضع نفسه بشكل علني بحيث يبدو مُقِراً لخرافة شائعة. هذا أولاً، ثم إنني كان لي دافع إضافي، حيث إن قصر باسكرفيل -كما جاء في مقالة الجريدة- سيبقى غيرَ مأهول لو حدث أي شيء يزيد سمعته الكئيبة سوءاً. لهذين السببين برّرت لنفسي عدم البوح بكل ما أعرفه لأن أي مصلحة عملية لن تنتج عن كشفه،

أما معك فلا أجد ما يمنعني من أن أكون بمنتهى الصراحة.

إن الأماكن المأهولة في أراضي المستنقع متفرقة ومتباعدة، لذلك فإن الذين يعيشون هناك في بيوت متقاربة يصبحون على صلة وثيقة. لهذا السبب كنت أرى السير تشارلز باسكرفيل كثيراً، ففيما عدا السيد فرانكلاند القاطن في قصر لافْتَر والسيد ستابلتون المهتم بدراسة النبات والحيوان لا يوجد متعلمون لعدة أميال. وقد كان السير تشارلز رجلاً معتزلاً بطبعه، إلا أن مرضه جمعَنا معاً، ثم وثّق صلتَنا اهتمامُنا المشترك بالعلوم. فقد عاد من جنوب أفريقيا بمعلومات علمية كثيرة، حتى إننا قضينا -مثلاً- ليالي لطيفة طويلة في مناقشة الفرق التشريحي بين سكان جنوب أفريقيا الأصلين ذوي البشرة السوداء وسلالة الهوتنتوت ذوي البشرة الصفراء.

خلال الأشهر القليلة الماضية اتضح لي أكثر وأكثر أن جهاز السير تشارلز العصبي على حافة الانهيار، فقد كان يأخذ تلك الأسطورة (التي قرأت لكم تفصيلاتها) على نحو جادّ جداً. وقد علمتم أنه كان يتمشى في حديقته الخاصة، إلا أنه كان يؤمن بالأسطورة لدرجة أنه ما كان ليخرج إلى المستنقع تحت أي إغراء.

قد يبدو غريباً لك -يا سيد هولمز- أن السير تشارلز كان مقتنعاً حقاً بأن مصيراً رهيباً يخيم على أفراد عائلته، وبالتأكيد فإن السجلّ الذي كان يستطيع تقديمه لمصير أجداده لم يكن مشجعاً، لذلك لازمَته باستمرار فكرةُ وجود شبح مخيف

ما، حتى إنه سألني في أكثر من مناسبة إن كنت قد رأيت أي مخلوق غريب أو سمعت نباح كلب صيد أثناء جولاتي الطبية في الليل. وقد كرر عليّ السؤال الأخير عدة مرات، وغالباً ما كان صوته يرتعد انفعالاً.

أذكر جيداً أنني ذهبت إلى منزله ذات مساء قبل الحادثة

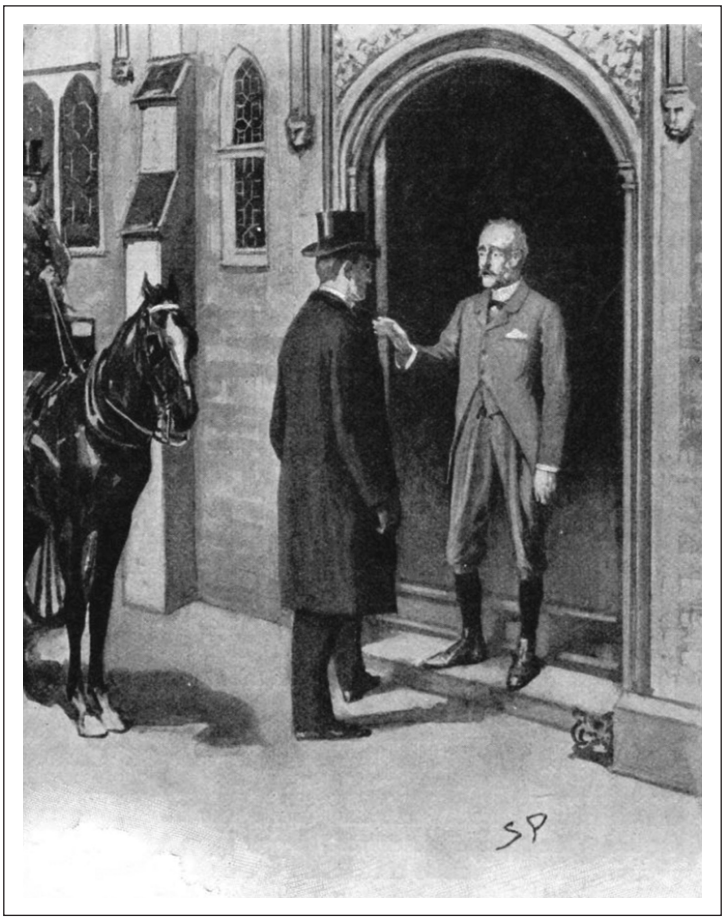

رسم سدني باجيت (١٩٠١) Sidney Paget (1901)

المشؤومة بنحو ثلاثة أسابيع فوجدته أمام باب البيت، وكنت قد نزلت من عربتي ووقفت أمامه عندما رأيت عينيه مثبّتَين فوق كتفي محدّقاً ورائي وقد اكتسى وجهه بالرعب الشديد، فالتفتّ إلى الوراء فلمحت شيئاً تخيلته عجلاً كبيراً أسود يمر عند رأس الطريق المعبّد. ودفعتني حالة الانفعال والخوف التي سيطرت على السير تشارلز إلى الذهاب للمكان الذي كان فيه الحيوان محاولاً البحث عنه، ولكنه كان قد اختفى.

بدا أن تلك الحادثة أثرت في تفكيره بشكل سلبي فبقيت معه طوال الليل، وبهذه المناسبة ولكي يشرح لي المشاعر التي اعترته أطلعني على المخطوطة التي قرأتها عليكم عند وصولي وائتمنني عليها. وأنا أذكر لكم هذه الحادثة لأنها تبدو على قدر من الأهمية نظراً إلى المأساة التي تبعتها، ولكنني كنت مقتنعاً في ذلك الوقت بأنه أمر تافه وأن انفعاله ليس له ما يبرره.

كان السير تشارلز في طريقه إلى لندن بناء على نصيحتي، فقد عرفت أن قلبه كان مريضاً وخفت على صحته من القلق المستمر الذي يعيش فيه، مهما بدت أسبابه وهمية، فرأيت أن قضاء عدة أشهر بين مشاغل المدينة سيعود عليه بالفائدة الكبيرة. وكان للسيد ستابلتون الرأي نفسه، وهو صديق مشترك كان مهتماً بحالته الصحية. ولكن هذه الكارثة الرهيبة وقعت في اللحظة الأخيرة قبل سفره.

في ليلة وفاة السير تشارلز أرسل كبيرُ الخدم، باريمور (وهو الذي اكتشف الجثة) أرسل البواب بيركينز بعربة يجرها

حصان لإحضاري. ولأنني كنت ساهراً وقتها فقد نجحت في الوصول إلى قصر باسكرفيل بعد نحو ساعة من وقوع الحادثة، وفحصت كل الوقائع التي وردت في التحقيق وتأكدت منها، فتتبعت آثار الأقدام على طول ممر أشجار السرو ورأيت المكان الذي يبدو أنه مكث لفترة فيه عند بوابة المستنقع، كما أنني تنبهت إلى التغيّر الذي حدث لشكل الآثار بعد تلك النقطة، ولاحظت أيضاً عدم وجود أي آثار أقدام أخرى عدا آثار أقدام باريمور على الطريق الرطب.

وأخيراً فحصت الجثة التي لم يكن أحدٌ قد لمسها حتى وصولي، فحصتها بعناية كبيرة. كان السير تشارلز راقداً على وجهه وذراعاه ممدودتين وأصابعه مغروزة في الطين، وكانت ملامحه متشنجة من جراء انفعال شديد لدرجة أنني لم أكن متأكداً تماماً من هُويّته! لم تكن في جسده أي إصابة من أي نوع، ولكن كانت في أقوال باريمور حقيقة واحدة ناقصة. فقد ذكر أنه لم يرَ على الأرض أي آثار حول الجثة، ولعله لم يلاحظ وجودها، أما أنا فقد رأيتها... على مسافة بعيدة قليلاً، ولكنها كانت آثاراً حديثة واضحة.

- آثار أقدام؟

- نعم، آثار أقدام.

- لرجل أم امرأة؟

نظر الدكتور مورتيمير نحونا بغرابة للحظة، وانخفض

صوته ليصبح كالهمس تقريباً وهو يجيب قائلاً: لقد كانت آثار أقدام كلب صيد عملاق يا سيد هولمز!

* * *

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون الصفحات التي قرأتها قد وفّرت لك قراءة ممتعة وعرَّفَتك بالرّواية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية (وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال
www.al-ajyal.com